القاضي عياض؛ وتمثيله للمذهب المالكي

The judge e'yaaD; Methylates him for the belief possessing

1مولى الخلوة مصطفى*/ 2 أ.د: يوسي الهوّاري

1– مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا– جامعة وهران 1

mustapha.moulelkhalloua@gmail.com

2– جامعة وهران 1 أحمد بن بلّة الجزائر

تاريخ الاستلام: 2021/04/23 تاريخ القبول: 2022/09/21 تاريخ النّشر: 2021/10/08

ملخّص:

القاضي عياض– رحمه الله – من أئمّة وقته في المذهب المالكي؛ أصولاً وفقهاً، وكذا في الحديث وفقهه وغريبه، ومشكله ومختلفه، وصحيحه وسقيمه، وعِلَلِهِ وحفظ رجاله ومتونه، وجميع أنواع علومه– كما ذكر ذلك ابنه في التّعريف– وامتاز بالضّبط والتّحقيق، وامتاز بحسّه النّقدي. وقد ذكره أبو الوليد بن الدبّاغ في الطّبقة الثّانية عشرة من المحدِّثين في كتابه. ويكفي أن يذكر في شيوخه أعلام زمانه، مثل: أبي عليّ الجيّاني وأبي عليّ الصّدفي... وخير دليل على ذلك مؤلّفاته التي تعدّ شاهدا على رسوخ قدمه في هذه الفنون التي ألّف فيها.

الكلمات المفتاحية: القاضي عياض؛ المذهب المالكي؛ الضّبط؛ التّحقيق؛ المخرج الفقهي.

Abstract:

Judge Iyad, may God rest his soul, is one of the imams of his time in the Maliki doctrine, as well as his son in the definition, as well as in the hadith, his jurisprudence and his strangeness, his problem and various, true and sterile, god and the preservation of his men and his duress, and all kinds of his sciences - as mentioned by his son in the definition - and excellent exactly and investigative, and characterized by his critical sense. Abu al-

Walid ibn al-Dabbagh mentioned him in the 12th class of modernists in his book. It is enough to mention in his elders the flags of his time, such as: Abu Ali al-Jiani and Abu Ali al-Sadfi... The best evidence of this is his works, which are a testament to the firmness of his feet in these arts in which he was composed.

Keywords:Judge Iyad; Al-Maliki Doctrine; Seizure; Investigation; Doctrinal Director

---

***المؤلّف المرسل: مول الخاوة مصطفى**

1. مقدّمة:

يُعتبر القاضي عياض رحمه الله من العلماء العاملين، له دور بارز في ترسيخ المذهب المالكي بالمغرب، وتوطيد أصوله، كتبه كلّها مبنيّة على التّحقيق معروفة بذلك، كما حازت عند أهل العلم تقديمها على غيرها ممّا هو في نمطها.

قصدت من خلال هذا المقال؛ المشاركة في إحياء التّراث المالكي من خلال التّعريف برجاله ومصادره، متمثّلا ذلك في شخص القاضي عياض؛ المحقّق، القاضي، المحدّث، الفقيه المالكي رحمه الله تعالى.

2. القاضي عياض؛ شخصيَّته وحياته العلميّة.*

---

* **يُنظر في ترجمته، ما يلي:** كتاب: التّعريف بالقاضي عياض، لولده أبي عبد الله محمّد. القاضي عياض سيرة موجزة، د.محمّد بنشريفة. أزهار الرّياض في أخبار عياض للمقري. الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ج43/2 وما بعدها. أبو الفضل عياض السّبتي (ثبت بيليوغرافي) د.حسن الوراكلي. الصّلة لابن بشْكوال، ج660/7 رقم 982. السّفر الثّامن من كتاب الذّيل والتّكملة لِكتابيْ الموصول والصّلة لأبي عبد الله المراكشي، تقديم وتحقيق وتعليق د.محمّد بنشريفة، ص: 244. السّعادة الأبديّة في التّعريف بمشاهير الحضرة المرّاكشية لمحمّد الموقت المراكشي، ص: 56. وفِيات الأعيان لابن خَلِّكان رقم 511. جِذْوَة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي رقم:567. جمهرة تراجم الفقهاء المالكيّة، د.قاسم علي سعد. شذرات الذّهب في

" لولا عياض ما ذُكِر المغرب "

إنّ هذه الكلمة أفضل تحلية يتحلَّى بها هذا الشّخص الفذّ العالي الهمّة[1]، قال الإمام العارف سيدي القاسم الحلفاوي –رحمه الله تعالى– في كتابه (شمس المعرفة، في سير غوث المتصوّفة) بعد أن ذكر الوليّ الكامل سيدي عبد الكريم الفلاح ضجيع القاضي عياض –رضي الله عنهما– ما نصّه:... قال العلماءُ من أهل الرّسوم: لولا عياض ما ذُكر المغرب، قال أهل الفهوم: نعم حسبما هو ظاهر مرسومٌ مّن العلوم، قال العلماءُ: لولا الشّفا ما ذُكر عياض بين الرّسوم، لأنّ غيره قد ألّف أكثر من تواليفه، وهو مع ذلك غير معلوم"[2].

"كان مُقدّم وقته في الحديث والتّفسير والأدب والشّعر والأصول والفقه والعلوم العربيّة مُشاركاً، له الرّحلة من الأقطار، وله الرّياسة في بلده فُتيا وقضاء خطيباً بليغاً شاعراً مجيداً كامل الأخلاق حليماً كريماً صلباً في الحقّ"[3].

قال الإمام أبوعمر بن سالم المالقي[4]:

أخبار من ذهب لابن العماد، المجلّد 6/226–227. قلائد العِقْيان ومحاسن الأعيان، لابن خاقان، ج2/ القسم 3 ص:683–684–685. الإحاطة لابن الخطيب، المجلد 4، ص:221 وما بعدها. الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام للسّملالي رقم 1489. تاريخ الوِراقة المغربيّة لمحمّد المنوني. الخطّ المغربيّ تاريخٌ وواقعٌ وآفاق لعمر أفا ومحمّد المغراوي.

[1]– "(القاضي عياض) لولا عياض ما ذُكر المغرب"، للأستاذ أحمد الكنسوسي، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض، 2/133.

[2]– نقله السّملالي، في: الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام، الجزء التّاسع، ص: 338–339.

[3]– الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي: 4/58.

ظلموا عياضاً وهو يحلم عنهـمُ ∴ والظّلم بين العالمين قديـــمُ
جعلواْ مكان العينِ راءً في اِسمه ∴ كي يكتموه وأنّه معلُـــــومُ
لولاه ما فاحت أباطِح سبتـــة ∴ والرَّوض حول فنائها معدُومُ

2. 1 التَّعريف بالقاضي عياض:

حياة القاضي عياض.

نسبه:

قال أبو عبد الله محمّد(ت575هـ)؛ ولد القاضي عِياض: "أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عَمْرُون[5] بن موسى بن عياض بن محمّد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليَحْصُبي [السّبتي[6]]. وكان أبي رحمة الله عليه يقول: لا أدري هل محمّد والد عياض أم بينهما رَجُلٌ فهو جدّه"[7].

"واليَحْصُبِي بضمّ الصّاد وكسرها، وزاد بعضهم فتحها، ونحوه لابن خلّكان[8]؛ واقتصر بعضهم على الكسر قائلاً: وهو الصَّواب، بناء على أنّها- أعني القبيلة- يحصِب، بكسر الصَّاد، كتغلب، ولا شكَّ أنّ النّسب إليه إن كان بكسر الصَّاد: يحصِبِي، بالكسر كتغلِبِي؛ وأمّا ضمّ الصّاد في النّسب فهو مبنيٌّ على أنّ "يحصُب" بضمّ الصّاد في الحي.

4- أبو عمرو بن سالم بن صالح النّهروانيّ المالقي، راوية شعر ابن خبَّازَة. ينظر: أزهار الرّياض، 380/2، 81/5.

5- وقع في مُعجم أصحاب الصّدفي، ص: 294، للإمام ابن الأبَّار: "عمرو" دون نُون.

6- زيادة المقري، في أزهار الرّياض.

7- التّعريف بالقاضي عياض، ص: 04

8- قاضي القُضاة شمس الدّين بن خلّكان (608-681هـ)، له كتاب" وفيات الأعيان " ؛ينظر: كتاب الوافي بالوفيات308/7.

قال ابن سيدة في مُحكمه: ويحصب: قبيلة، وإنّما هي يحصب، يعني بضمّ الصّاد، نُقِلت من قولك: حصبه بالحصى يحصبُه...

ويحصب: من حِمْيَر، وهو يحصب بن مدرك، حسبما هو مذكورٌ في كتب الأنساب[9].

والسّبتي: نِسبة إلى سبتة، مدينة بساحل بحر الزقاق، مشهورة، واختُلِف في سبب تسميتها بذلك، فقيل لانْقطاعها في البحر، من قولك: سَبَتُّ النَّعل= إذا قطعتها، وقيل لأنّ مختطها هو سبت بن حام بن نوح...

وفيها يقول الأديب أبو الحكم مالك بن المرحّل، من قصيدةٍ طويلةٍ بديعةٍ جدّاً، مّطلعها :

سلام على سبتة المغرب ∴ أخيّة مكّة أو يثرب[10]"

ويرتفع نسب عياض إلى يحصب بن مالك بن زيد. ويحصب أخو ذي أصبح، الحارث بن مالك بن زيد الذي ينتهي إليه نسب الإمام مالك بن أنس الأصبحي[11].

---

[9]- كثير من بني يحصب اِستوطنوا الأندلسَ بعد الفتح، فنُسِبت إليهم قلعة هناك دُعِيت: قلعةَ يحصب، كما دُعِيت قلعة بني سعد. من المحتمَل أنّ بعض أجداد عِياض اِتَّخذواْ "قلعة يحصب" موطناً لَّهم...وتُعرف قلعة يحصب أو قلعة بني سعد في الوقت الحاضر باسم " ألكالالاريال" أي القلعة الملكيّة... كانت هذه القلعة في الماضي تابعةً لإقليم غرناطة، غير أنّها أصبحت في التّقسيم الإداري الإسباني الحديث تابعة لإقليم جيان Jaen وهي واقعة في جنوب هذا الإقليم. العلّامة أبو فضلٍ عِياضٌ كما يراهُ علماء المشرقيات للدّكتورعبد الله العمراني- ندوة الإمام مالك؛ دورة القاضي عياض: 2/66-67

[10]- أزهار الرّياض في أخبار عِياض: ج1/26-27-28.

[11]- نقله المُحَقِّقان، عن مجّلة المناهل: عدد 19، ص:13؛ ينظر التّنبيهات: 01/14.

وهذا النّسب يُثبت أنّ عِياضاً عربيّ الأصل والسُّلالة، يرتبط بالإمام مالك بصلتين: صلة القربى والنّسب بالِانتساب إلى قبيلة حِمْيَر من عرب اليمن. وصلة الِاقتداء بمذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي تمسَّك به أهل المغرب، وكان عِياض من أبرز أعلامه وأشهرهم[12].

وعُرف من أسرة أمّه بتعاطي العلم، خالاه أبو بكر محمّد وأبو محمّد عبد الله ابنا علي المعافري المعروف بابن الجوزي[13].

والبيت العياضي بيتُ قضاء وفقه، فقد تسلسل منه في مقام القضاء أربعة قضاة هم:

- القاضي عياض نفسه، قاضي سبتة وغرناطة.
- والقاضي محمّد بن عياض، قاضي دانية.
- والقاضي عياض بن محمّد بن القاضي عياض.
- وأخيراً القاضي محمّد بن عياض بن محمّد بن القاضي عياض، الذي ولي قضاء قرطبة[14].

فالقاضي محمّد بن عياض، قاضي دانية:

"محمّد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمّد بن موسى عِياض اليحصُبي: من أهل سبتة، وأصله من بسطة، ومنها انتقل أجداده قديماً، يُكنّى أبا عبد الله، سمع من أبيه القاضي أبي الفضل، وابن العربي، أجاز له وغيرهما،

---

[12]– التّنبيهات المستنبطة، تحقيق: د.محمّد الوثيق، ود.عبد النّعيم حميتي، 14/01.

[13]– التَّنبيهات، بتحقيق؛ د.محمّد الوثيق، وَ.د.عبد النّعيم حميتي: 14/01 (قسم الدِّراسة).

[14]– القاضي عياض وجهوده في عِلمي الحديث رواية ودراية، ص:106.

وأخذ مصنّف النّسائي –قراءةً– عن أبي بكر يحيى بن محمّد بن رزق، ودخل الأندلس، وَوُلِّيَ قضاءَ دانية منها قبل السّبعين وخمسمائة، وكان حميد السّيرة، نزيهاً متّواضعاً، له مشاركة في الأدب والأخبار، وَوُلِّيَ أيضاً قضاء غرناطة وتُوُفِّيَ بها، وقيل بسبتة سنة 575[15]، ذكره ابن سفيان، وفيه – عن غيره: وحدَّث عنه ابنه أبو الفضل عيَاض بن محمّد. وتوفّي سنة وفاته أبوالحسن بن يربوع قاضي مالقة – وكان من الفقهاء النّبلاء– وأبو مروان بن قاسم الطّبيب". "أُستُعمِل على القضاء بدانية قبل السّبعين وخمسمائة ثمّ بغرناطة فحمدت سيرته"، ومعنى هذا أنّ مدّة قضائه كانت في عهد يوسف بن عبد المومن (558–580هـ)، وأنّها كانت بعد مرور أزيد من عشرين سنةً على مِحنة القاضي عياض والده، وكان من الجائز أن تسحب هذه المحنةُ ذيل الخمول على عقب القاضي أبي الفضل –والأمثلة في التّاريخ عديدةٌ– فهل كان هذا التّعيين ضرباً من "ردّ الإعتبار" لآل عياض؟ أم أنّ فيه شيئاً مّن القصد إلى إبعاد الأُسرة العياضيّة عن مركز زعامتها في سبتة[16]؟

لم يُعَمّر أبو عبد الله محمّد بن عياض، فقد تُوفّي..قبل أن يّبلغ الخمسين عاماً.

ونحسب أنّ محنةَ والده التي اِنتهت بوفاته مُغَرَّباً عن بلده، كان لها تأثيرٌ في مجرى حياته– وإن كُنَّا نجهل مدى هذا التّأثير. وعندي أنّ وفاته المبكّرة هذه – مع اِعتبار الأجل– لا تخلو من صلة بغصَّة ظلّت دفينةً في نفسه، من جرّاء ما ألمّ بوالده[17].

مولده:

15– "الصّواب في وفاة ولد عياض سنة اثنين وسبعين". وفيات الأعيان: 485/3 (تحقيق د.إحسان عبَّاس)، قال د.محمّد بنشريفة في التَّعريف ص: ك: أي سنة 572هـ.

16– التَّعريف : ط

17– نفسه: ك؛ قاله د.محمّد بنشريفة.

اتّفقت كتب التّراجم على أنّ مولد عياض كان في سنة ستّ وسبعين وأربعمائة من الهجرة. وعلى وجه التّحديد في مُنتصف شهر شعبان، وقد كتب بذلك بخطّه إلى ابن بشكوال[18].

قال القاضي محمّد في التّعريف: "... فأخذ ابن أبي عامرٍ رُهُناً مّن أعيان مدينة فاس، فأخذ فيهم أَخَوَيْ عمرون: عيسى، والقاسم، فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارهما بمدينة قُرطبة، فاستحسن سُكنى مدينة سبتة، وكان موسراً مّن دُنياه، فاشترى بها أرضاً، وهي المعروفة بالمنارة، فبنى في بعضها مسجداً وفي بعضها دياراً حبسها على المسجد، وهو حتّى الآن منسوبٌ إليه وحبَّس باقي الأرض للدّفن، ولم يزل منقطعاً في ذلك المسجدِ، إلى أن مات رحمة الله[19] سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وولد له قبل وفاته بيسيرٍ ابنه عياض، ثمّ وُلِدَ لعياضٍ ابنه موسى، ثمّ وُلِدَ لموسى ابنه عياض أبي —رحمة الله عليه وعلى جميعهم، **فيما رأيت بخطّه** في النّصف من شعبان عام ستّة وسبعين وأربعمائة [بسبتة]"[20].

2. 2 نشأته العلميّة:

"يذكر المؤرّخون وأصحاب التّراجم: أنّ عياضاً نشأ في أسرة طيِّبة الأرومة كريمة الشّمائل، كثير الأمجاد والمفاخر، وقدّر له أن يَّعيش تحت رِعايتها وتهذيبها وصيانتها، ممّا

18– التَّنبيهات، بتحقيق؛ د.محمّد الوثيق، وَ.د.عبد النّعيم حميتي، ص: 15.

19– في الأزهار، رحمه الله، قاله د.محمّد بنشريفة.

20– زيادة في أزهار الرّياض؛ قاله د.محمّد بنشريفة.

وسبتة: مدينةٌ مّغربيّة على شاطِئ البحر الأبيض المتوسّط شمال المغرب. التَّنبيهات، بتحقيق؛ د.محمّد الوثيق، وَ.د.عبد النّعيم حميتي، ص: 15.و ينظر: التّعريف، ص: 4، 5.

جعله مهذّب الخلق راجح العقل، متوقّد الذَّكَاء، باديَ الفطنة، إلى حرص شديد على اِرتشاف مناهل العلوم.

وليس من شكّ في أنّ عياضاً لّم يسبق له أن تعرَّف على مركزٍ تعليميٍّ قبل تعرّفه على الكُتَّاب... فالْكُتَّابُ، إذن هو أوَّل من تلقَّاه بعناية خاصَّة، ولاسيما عندما لاحظ فيه مخايل الذَّكاء، واِستعداده للتَّلقِّي وهذا ما جعله يحفظ القرآن في سنٍّ لّم تتجاوز التّاسعة من عمره... وقدِ اِستمرّت أسرته في العناية به، وتعليمه كلّ ماله صِلة بالقرآن من تجويدٍ وقراءات... حيث أتقن القراءات السّبع برواية نافعٍ وابن كثيرٍ وأبي عمرو بن العلاء وابن عامر، أخذ هذه الرّوايات عن عبد الله بن إدريس بن سهل المقرئ[21](515هـ) وبرواية حمزة بن حبيب الزّيّات عن عبد الله بن محمّد النّفزي[22](538هـ)" [23].

يقول القاضي محمّد ابنه: "...فنشأ على عفّة وصيانة، مَرْضِيَّ الخِلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنّبل والفهم والحِذق، طالباً لّلعِلم حريصاً عليه، مُجتهداً فيه، مُعظّماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاِختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه، وساد جُملة أقرانه وبلغ من التفنُّن في فنون العلم ما هو معلوم، فكان من حُفّاظ كتاب الله تعالى، والقيام عليه، لا يترك التّلاوة له على كلّ حالة، مع الْقراءة

---

[21]– قال القاضي عياض: قرأت عليه، رحمه الله، القرآنَ برواية نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر بطُرُقِها.الغُنية(غ.إ)، ص: 157.

[22]– قال القاضي عياض: ...وسمعَ بقراءتي عليهم وسمعت بقراءته وحدَّثني عن خالي أبي بكر محمّد بن علي المعافري المعروف بابن الجوزي، برؤيا حمزة الزيات.الغُنية(غ.إ)، ص: 157.

[23]– مكانة عياض العلميّة– للأستاذ السّعيد بوركبة، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض: 34/01.

الحسنة المستعذبة، والصّوت الجهير والحظّ الوافر من تفسيره، والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه، وجميع أنواع علومه"[24].

ومنْ أشهر شيوخ العلم بسبتة الذين جلس إليهم عياض وأفاد من معارفهم في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام والنّحو واللّغة والأدب: القاضي أبو عبد الله محمّد بن عيسى التّميمي، والخطيب أبو القاسم عبد الرّحمن المعارفي[25]، وأبو محمّد عبد الغالب بن يوسف السالمي، وأبو الحجّاج يوسف بن موسى الكلبي، ففي حلقات هؤلاء الشّيوخ وأمثالِهِمُ استوت شخصيّة عياض العلميّة ونضجت[26].

ولَمَّا استوفى القاضي عياض الثّلاثين من عُمره خرج من سبتة متوجِّهاً إلى قرطبةَ، وذلك يوم الثّلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة.

فهاجس الرِّحلة العلميَّة إذن كان حاضراً عند عياض، طالما أنّ طالبَ العلم لا مناصّ له من لِّقاء الرّجال، للأخذ والرِّواية أيضاً، ولتمحيص الرِّوايات ثانياً، وللمقابلة على الأصول، ولغير ذلك من الأغراض، إلّا أن يّكون قد ظفر في بلده وأفقه بما يَسُدُّ به حاجته، ويُحقِّق طلبه ممّن رحل في هذا قبله فكفاه مؤونة التّنقيب في البلاد، وأغناه عن ضرب أكباد المطايا وإعداد الزّاد، كما فعل عياض بالقياس إلى أهل بلده؛ ولهذا نراه يُلِحُّ على المنهاج الصَّحيح الذي ينبغي أن يُحتذى في السّماع وتصحيح المتون، والمقابلة على الأصول، وكأنّه من خلال ذلك يقدّم إلينا نفسه، ويصف لنا مُعاناته في الطَّلب، وكيف

---

[24]- التَّعريف، ص: 06.

[25]- **الصَّواب: المعافري**؛ ينظر الغنية: 165(طبعة دار الغرب الاسلامي).

[26]- أبو الفضل القاضي عياض السّبتي (ثبت ببليوجرافي)، د.حسن الوراكلي، ص:11-12.

شدَّ الرّحال في هذه الغاية حتّى لقي مَن لقي من العلماء الفهماء الجهابذة في الآفاق التي بلغ إليها مُنتهى رحلته –رحمه الله–[27].

قال القاضي عياض –رحمه الله– في تقديمه لكتاب مشارق الأنوار: "...ثمّ نظروا رحمهمُ اللهُ بعد هذا التّمييز العزيز والتّصريح المريح، نظراً آخر في الصَّحيح، فيما يقع لآفة البشريَّة من ثِقات رُوَّاته من وَهْمٍ وغفلة، فنقَّبوا في البلاد عن أسبابها، وهتكُوا بِبارع معرفتهم ولطف فِطنتهم سجف حجابها، حتّى وقفُوا على سِرِّهَا، ووقعوا على خبِيئة أمرها، فأبانُوا عِللها، وقيَّدُوا مُهمَلها، وأقامُوا محرفها وعانوا سقيمها، وصحَّحوا مصحَّفها"[28].

ثمّ قال: "... ثمّ ترى الرّاحلَ لهذا الشّأن الهاجر فيه حبيب الأهل ومألوف الأوطان، قد سلك من التَّساهل طبقة من عدم ضبطه لكتابه، وتشاغله أثناء السَّماع بمحادثته جليسة أو غير ذلك من أسبابه"[29].

ثم يشير في تقويمه لأهميّة كتابه إلى الرّحلة مرّة أخرى[30]؛ بقوله: "... وأنَّه يستغني بما يجده في كِتابنا هذا **عن** الرِّحلة لمتقني الرِّجال"[31].

---

[27]– تحقيقات في مُنتهى رحلة القاضي عياض، وهل حجَّ حقّاً؟ ولقي الإمام الزَّمخشري وناظره؟ د.عبد الهادي حميتو، مقال بمجلّة مِرآة التّراث. الرّابطة المحمّديّة للعُلماء، العدد: 2011/01، ص:66.

[28]– مشارق الأنوار(**طبعة فاس**): 02/01، مشارق الأنوار(ك.ع): 11/01.

[29]– مشارق الأنوار(**طبعة فاس**): 03/01، مشارق الأنوار(ك.ع): 12/01.

[30]– قاله الدّكتور: عبد الهادي حميتو؛ في المقال السَّابق، ص: 66.

[31]– مشارق الأنوار(**طبعة فاس**): 07/01، مشارق الأنوار(ك.ع): 12/01(**كُتِبَتْ:"على الرِّحلة";والصّواب ما رُسِمَ في طبعة فاس**).

قال القاضي محمّد ابنُه: "... فوصل قرطبة[32] يوم الثّلاثاء مستهلّ جمادى الآخرة بعده، فأخذ بها عنِ اِبنِ عتّاب، وابن حَمْدين، وابن الحاج، وغيرهم مِّنَ اَعلام قُرطبةَ. ثمّ خرج منها إلى مُرْسِية يوم الإثنين لخمسٍ بقين من المحرّم سنة ثمان مّن التّاريخ، فوصل إلى مُرْسية يوم الثّلاثاء الثّالث من صفر بعده، فوجد أبا عليٍّ الحافظ الحسين بن محمّد الصّدفي مُختفِياً، فأقام بقيّة صفر وربيع الأوّل يُقابل كتبه أثناء ذلك بأصول الحافظ أبي عليّ إلى أن وَّصل كتابَ قاضي الجماعة أبي محمَّد بن منصور بحلّ القاضي أبي عليّ عن القضاء، ووصل كتابه لأبي -رحمة الله على جميعهم- مُعْلِمًا لَّهُ بذلك إذ كان يكرُمُ عليه، وعلم برحلته إليه، فخرج أبو عليّ مِّنِ اِختِفائه، وجلس للتَّسميع، فسمع عليه كثيراً ولازمه وكان له به اِختِصاص، فحصل له مسموع كثير في مُدَّةٍ يسيرةٍ.

حَكَى أبي- رحمة الله عليه- أنّ القاضي أبا عليّ- رضي الله عنه- قال له: لولا أنَّ اللهَ يسَّرَ خروجي بلُطفِهِ، لكنتُ عزمتُ أن أشعرك بموضِعٍ يقعُ عليه الإختيار من بلاد الأندلس لا يُؤْبَهُ لِكوني فيه، ترحلُ إليه، وأخرُجُ مُختفياً إليه بِأصولي، فتجد ما ترغب، لِمَا كان في نفسي من تعطيل رحلتِك [وإخفاق رِحلتك]، [وإخفاق رغبتِك]، ولقِيَ في

---

[32]- كانت رحلة القاضي عياض إلى الأندلس، موضع اِهتمامٍ مَّلحوظ، واعتناءٍ خاصٍّ مّن قِبل أمير المسلمين علي بن تاشفين، وأصحاب دولته في مُرّاكش، فأمير المسلمين يكتب في شأنه إلى ابن حَمْدين قاضي الجماعة بقرطبة: "وفُلانٌ (يعني عياض) أَعزَّهُ الله بتقواهُ، وأعانَهُ على ما نَواهُ، مِمَّن لَهُ في العِلْم حَظٌّ وافِرٌ، وَوَجْهٌ سافِرٌ، وعِنْدَهُ دَوَاوينُ أغفالٌ، لم تُفْتَحْ لها **على** الشُّيوخ أقْفالٌ، وقَصَدَ تِلْكَ الحَضْرَةَ لِيُقيمَ أَوَدَ مُتُونِهَا، ويُعاني رَمَدَ عُيُونِهَا، وَلَهُ إِلَيْنا مَاتَّةٌ مَرْعِيَّةٌ، أَوْجَبَت الإشَادَةَ بِذِكْرِهِ، والاِعتناءَ بأَمْرِهِ، ولَهُ عِنْدَنا مَكَانَةٌ حَفِيَّةٌ تَقْتَضي مُخاطَبَتَكَ بخَبَرِهِ، وإنْهَاضَكَ إلى قَضَاءِ وَطَرِهِ، وأنْتَ إنْ شاءَ اللهُ تُسَدِّدُ عَمَلَهُ، وتُقَرِّبُ أَمَلَهُ، وتَصِلُ أَسْبَابَ العَوْنِ لَهُ[إن شاء الله]" التَّعريف: 06- هامش23، **بِرَسْمِ:"من الشّيوخ"؛ والصّحيح ما أثبتّه، وزِيادة ما بين عارضتين.** ينظر: قلائد العِقيان، 328/01.

رِحلته هذه جماعةٌ مّن أعلام الأندلس، وأجازه أبو علي الجيّاني، وشُريح، والقاضي ابن شبرين وغيرهم مّنَ اَعلام غربي الأندلس.

وأجازه أيضاً أبو جعفرٍ بن بَشْتَغير وأبو القاسم بن الأنقَر، وأبو زيد بن مَنْتِيل، وغيرهم مّنَ اَعلام شرق الأندلس.

وأجازه أبو عبد الله المازَريّ، وأبو بكر الطُّرْطوشي، وأبو عبدِ الله بن الحطّاب، وحَيْدَر، وغيرهم مِّنَ اَهل إفريقيّة، ومصر، والحجاز، اِنتهى أشياخُه الذين ضمَّ إلى فهرسته -ممّن سمعه أو أجازه- واليسيرُ منهم لقيَه وجالسه ولم يسمع منه [إلى] مائة شيخٍ،... ووصَل بلده ليلة السَّبت السّابع من جمادى الآخرة من عام ثمان وخمسمائة، وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدوَّنة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً أو نحوها، وبعد ذلك بِيسيرٍ أُجلِس للشّورى، ثمّ وُلِّيَ القضاء عام خمسةَ عشر وخمسمائة لِثلاثٍ بقين من صفر، فسار فيها حسن السّيرة، محمود الطّريقة، مشكورَ الخَلَّة[الحالة]، أقامَ جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها، وبنى الزِّيادة الغربيَّة في جامع سبتة الذي كَمُلَ بها جماله، وبنى بجَبَلِ الميناء الرّابطةَ المشهورةَ إلى غير ذلك من الآثار المحمودة، والمساعي المرضيَّة، فعظُم جاهه وبَعُدَ صِيتُه، ثمّ نُقِلَ إلى غرناطة، ووصل [إليه] الكتاب بذلك في أوَّل يومٍ مّن صفر سنةَ إحدى وثلاثين وخمسمائة، فنهض إليها وتقلَّد خطَّة قضائها على المعتاد من شِيمه السنيّة وأخلاقه المرضيَّة، مشكوراً عند جميع النّاس، لكنَّ تاشفين ضاق به ذَرعُه، وغَصّ بموافقته له في الحقائقِ وصدَّ أصحابه عن الباطل، وخدمته عن الظُّلم، وتشريدهم عن الأعمال، فسعى في صرفه عن قضاء غرناطةَ، فصُرِف بعد اِنفِصاله عنها زائراً أهلَه، وترك ابنَ أخيه الزّاهد أبا عبد الله -رحمه الله- على الأحكام، وذلك في رمضان المعظَّم اثنين وثلاثين وخمسمائة.

ثُمَّ ولي قضاء سبتة ثانيةً في آخر عام تسعة وثلاثين وخمسمائة قدمه إبراهيم بن تاشفين بن عليّ بن يوسف وابتهج أهلُ بلدِه وسار فيهمُ السّيرة التي عهِدوا منه.

ثمّ بادر بالمسابقة إلى الدُّخول في نظام الموحّدين، والاِعتصام بحبلهمُ المتين، فأقرّه أمير المؤمنين أدام اللهُ نصره على ماكان عليه، وصرف أمور بلده إليه، وخاطبه بالتّنويه، وحَظِي عنده وشكَر بِدارَهُ وسبقَه، ثمّ رحلَ إليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجُّهه دام تأييده، إلى محاصرة مراكش، فأوسع نُزْله وأجزل صلتَه، ولقي منه برّاً تامّاً وإكراماً عامّاً، وانصرفَ على أحسن حالٍ، إلى أن ثارتِ الفتنةُ الدنيويّة والأُخرويّة، وبقي يُدبِّر أمرَه، ويسوسُ أهلَه، دون تعاطٍ إلى الإمْرَة في قول أو فعل، إلى أن دخل الصَّحْراويّ البلدَ، وهو حينئذ بخارج الجَزيرَة الخَضراء زائراً ومُدافِعاً لّيحْي بن غانِية.

ثمّ انصرفَ وأقام على تولِّي الأحكام بين النّاس، وهو مع ذلك يُسمِع حديثَ رسول الله، ويُدرِّس الفقهَ، واشتدَّ الحِصار بالبلد، فسَعَى في اِستِعطاف الموحِّدين –أدامَ اللهُ أمرَهم– وتلطَّف في اِستلطافهم، والاِعتذار عنِ الكائنة إلى أَنْ عَفَوا عمّا كان، وأخذواْ بالصَّفح والغُفْران، فمَلَكوا البلد، ولقِي رحمة الله عليه من زعيمهم في ذلك الحين يصْلَاتن بن المعِز البرّ العام والتّانيس التّام، ثمّ نهضَ إلى الحضرة العليّة –أدام الله حراستَها– في يوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة، صُحْبة الشَّيخ أبي يحيى ابن الجَبْر، وتحت برّه، إلى أن وصل ظاهرَ مكْناسة، وبه الشّيخ المعظّم أبو حفصٍ عُمَر بن يحيى الهِنْتي، فَلَقِيَ منه من البِرِّ ما استغربَه كلّ من شاهدَه، واستبعده كلّ من سمعه، وأَصْحبه كتباً إلى الحَضْرة، فوصلها والحالُ متغيِّرة عليه، فأقام بها تحت لقية، إلى أنِ اِجتمعَ بسيِّدِنا أمير المؤمنين دام نصره، وكان منه –رحمة الله عليه– من الْكلام المنظوم والمنثور ما استعطفَه به، حتّى رقَّ له، وعفا عنه، على أبرّ وجه وأجمله، وأمره بلزوم مجْلِسِه،

وأظهر تقريبَه ومحبَّته، وكان يسألُه فيستحسنُ جوابَه، فأقام على تلك الحال، ومنزلتُه تزدادُ عنده كلّ يومٍ سُمُوّاً وَرِفْعَةً"[33].

أقول وقد جدَّ اِرتحـــــالي وغـرَّدت ∴ حداتي وزمت للفراق ركـــــائبي

وقد غمضت من كثرة الدَّمع مقلتي ∴ وصارت هواء من فؤادي ترائبـي

ولم يبقَ إلّا وقفـــة يستحثّهـــــَـا ∴ وداعي للأحباب لا للحبـــائب

« القاضي عياض »

ما دُمنا نتحدَّث عن رحلات القاضي عياض –رحمه الله– يتبادر إلى الذِّهن سؤالٌ، مفاده:

2. 3 هل حجَّ القاضي عِياض أم لا؟.

"قد يبدُو غريباً في زماننا، لسهولة أمر الحجّ وتيسّره، وضيق الزَّمن الذي يتَّسع له ذهاباً وإيابا، حتَّى أنّه ربّما تمّ في أقلّ من نصف الشّهر، أن نّتساءلَ هل حجّ عياض؟. عياضٌ الفقيه التَّقيُّ الدّاعيةُ يُسأل عنه هل أدّى ركناً مِّنَ اَركان الإسلام، وهو بهذه السّهولة، وعلى هذا القدر من التّأنّي والإمكان؟.

إذن كيف يكون عياض لم يحجّ حجّةَ الاِسلام، وهو قد أَفْعَمَ كُتبَه ورسائله الأدبيَّة وأشعاره حنيناً وشوقاً إلى تلك المشاهد والمعاهد والآثار في الحرم المكّي والرَّوضة

[33]– التَّعريف: 6 إلى 13.

الشَّريفة، وكتب الرّسائلَ السّائرة وأنشأ الأشعار، وبعث بها إلى تلك الدِّيار يبسطُ الأعذار، ويذكر اِنقِطاع الأسبابِ وقيام الموانعِ وينشد[34]:

يادار خير المرسلـــــين ومن بـــه ∴ هُدى الأنام وخُصَّ بالآيـــات

عِندي لأجلك لوعة[35] وصبابـة[36] ∴ وتشوّق متوقّـــــد الجمـرات

وعليّ عهدٌ إن ملأت محـــاجري[37] ∴ مِن تِلكمُ الجدران والعرصـــات

لأعفِّرنّ[38] مصون شيبي بينهـــــا ∴ مِن كثرة التّقبيل والرّشفـــــات

لولا العوادي[39] والأعادي زُرتهـا ∴ أبدًا ولو سَحْبًا على الوجنـات[40]

لكن سأُهدي من حفيل[41] تحيَّتي ∴ لقطين[42] تلك الدّار والحجرات

أزكى من المِسك المفتق[43] نفحة ∴ تغشاه بالآصـــال والبُكُرات

---

[34]– تحقيقاتٌ في مُنتهى رِحلة القاضي عياض، وهل حجَّ حقّاً؟ ولَقِيَ الإمامَ الزّمخشريّ وناظره؟ د.عبد الهادي حميتو، مقال بمجلّة مرآة التّراث المغربيَّة، عدد:2011/01، ص:60.

[35]– اللّوعة: شدّة الحبّ.

[36]– الصّبابة: رِقّة الشّوق.

[37]– محاجر: جمع محجر وهو جوانب العين.

[38]– لأعفرنّ: التّعفير وهو التّمريغ بالتّراب.

[39]– العوادي: جمع عادية، وهي الأمورُ التي تمنع عن زيارتها والعوائق، والعادية الغائرة الظّالمة.

[40]– الوجنات: جمع وجنة وهي أعلى الخدّ.

[41]– حفيل: بحاء مهملة وفاء وباء تحتيّة ساكنة ولام بمعنى كثير نفيس يحتفل به.

[42]– قطين: بمعنى المقيم... ويُطلق على الأتباع والخدم.

[43]– المفتق: ما خلط بغيره ليزداد طيبه كماء الورد.

وتخصّـــــه بزواكـــي الصّلوات ∴ ونوامي التَّسليم والبركـــات[44]

بل يبدو في غاية البعد أن يّزهد عِياض في أداء فريضة الله عليه، وهو الذي يُنهي كتابه "الإعلام بحدود[و] قواعد الإسلام" بقوله، في تارك الحجّ معترفاً بوجوبه أو غير معترفٍ[45]: "وأمّا الحجّ فمن تركه بعد الِاستطاعةِ عليه، زُجِر ووُعظ ووُبِّخ؛ لكونه موسع الوقت. وذهب بعض العلماء إلى أنّ من ترك شيئاً مّنْ هذه القواعد، وإنِ اِعترف بوجوبه، فإنَّه كافرٌ يُقتَل كتارك الصّلاة، ولم يختلفواْ في كفر جاحدِ وجوبها ولا قتله"[46].

3. المخرج الفقهيّ وفقه الأولويّات؛ في تصرُّف عياض في فتاوى الفقهاء في حجِّ المغاربة في زمنه:

كانتِ الفتوى في زمن عِياض بسقوط فريضة الحجِّ عن أهل هذه الجهات لقيام الموانع المسقطة لتوجُّه الخطاب الشَّرعيِّ في الوجوب لفُقدان شرطه المجمَع عليه. وقد عبّر عن هذا بلِسان الفقهاء زعيم فقهاء الأندلس والمغرب، وأحد أكابر شيوخ عياضٍ الإمام أبو الوليد بن رشد الجدّ (ت 520هـ) فقال في جوابٍ لّه على اِستفتاءٍ وجَّهه إليه ملك العصر يومئذ بالمغرب والأندلس عليُّ بن يوسفَ بن تاشفين المرابطي، يسأل فيه: أيُّهما أفضل لأهل الأندلس: الحجُّ أمِ الجهادُ؟[47].

فبعث إليه ابن رشدٍ يقول: "وفرض الحجِّ ساقطٌ عن أهل الأندلس، في وقتنا هذا، لعدمِ الِاستِطاعة، التي جعلها اللهُ شرطاً في الوجوب، لأنَّ الِاستطاعةَ: القدرةُ على

44- ينظر: أزهار الرّياض، 180/04.

45- قاله، د.عبد الهادي حميتو.

46- الإعلام بحدود [و]قواعد الإسلام: 146-147.

47- المقال السَّابق، د.عبد الهادي حميتو، ص:61.

الوصول، مع الأمن على النَّفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزَّمان. وإذا سقط فرض الحجّ، لهذه العلَّة، صار نفلاً مّكروهاً؛ لّتقحُّم الغرر فيه". قال: "وأمّا من لّم يحجّ حجّةَ الفريضة، والسَّبيلُ مأمونةٌ، فيتخرّج ذلك على الِاختلافِ في الحجِّ، هل هو على الفور، أم على التَّراخي؟"[48].

ثمّ قال صاحب المعيار عقب هذا الجواب: "وممّا استدركه –رضي الله عنه–، يعني ابن رشد– في جوابه، إِذْ سألَه أميرُ المسلمين، بسبتة، أوَّل سنة خمس عشرة، وخمس مائة، عَنْ أهل العدوة –يعني المغرب– هل هم مّثل أهل الأندلس في ذلك أم لا؟ فقال: إِنَّ من سوى أهل الأندلس، منَ اَهل العدوة، سبيلهم سبيل أهل الأندلس، إذ كانواْ لا يصلون إلى مكَّةَ إلّا بخوفٍ على أنفسهم وأموالهم. وإن كانواْ لا يخافون على أنفسهم، ولا على أموالهم في الوصول إلى مكَّةَ، فالجهادُ عندي لهمْ أفضلُ من تعجيل الحجِّ، إذ قد قيل: إنَّه على التَّراخي، وهو الصَّحيح من مذهب مالك –رحمه الله– الذي تدلُّ عليه مسآئِله"[49].

وبمثل هذه الفتوى من اِبْنِ رشدٍ أفتى الشَّيخ الفقيه أبو بكر الطرطوشي(ت: 520هـ)[50] شيخُ عياضٍ أيضاً ومعاصره، حيث ذهب إلى أنّ الحجّ "حرامٌ على أهل المغرب، فمن خاطر وحجَّ، فقد سقط فرضه، ولكنَّه آثمٌ بما اِرتكب من الغرر"[51]. وأفتى بمثل هذا مع أئمة عصر عياض وشيوخه في القرن الخامس وأوّل السّادس: أبو عبد الله

---

[48]– كتاب مسآئل أبي الوليد بن رشدٍ الجدّ، تحقيق محمّد الحبيب التجكاني، ص: 903، رقم المسألة: 237.

[49]– كتاب مسآئل أبي الوليد بن رشدٍ الجدّ، تحقيق محمّد الحبيب التجكاني، ص: 904، رقم المسألة: 237.

[50]– قال القاضي عياض:"كَتَبَ إِلَيَّ يُجِيزُنِي جميعَ رواياته وتصانيفه... "الغُنية: 62– 64.

[51]– المعيار المعرب للونشريسي: 433/01.

المازَري(ت: 536هـ)[52]، وابن حمدين(ت: 508هـ)[53]، وأبو الحسن اللّخمي(ت: 478 هـ)[54]، وابن طلحة[55] وسواهم[56].

4. تمثيلُ عياضٍ لّمذهب أهل السنّة:

كان عياضٌ –كما يبدُو من التَّقويم العامّ لشخصيّته الفكريّة والعِلميّة– أشعريُّ العقيدة مالكيُّ المذهبِ*، تنطق بذلك عامّة كتبه، كما يتجلَّى في منافحته عمَّن ينعتهم بأصحابنا، ويحتجُّ بالنَّقل عنهم في تقرير الْعقائد وغيرها.

---

[52]– قال القاضي عياض:" كَتَبَ إِلَيَّ من المهدية يُجيزُني كتابه المسمَّى بالمعلم في شرح مسلم وغيره من تواليفه"، الغُنية: 65.

[53]– قال القاضي عياض:" وسمعتُ عليه الموطّأ رواية يحي بن يحي اللَّيثي..."، الغُنية: 46.

[54]–"وهو مغرى بتخريج الخلاف في المذهب؛ واستقراء الاقوال، وربّما تبع نظره، فخالف المذهب فيما ترجَّح عنده.."،المدارك:109/8

[55]– ابن طلحة المذكور هو أبو بكر اليابري النَّحويّ شيخ الزَّمخشري الآنف الذكر، في كتاب سيبويه من الأندلسيين... (مرآة التراث، عدد:61/01)؛ ينظر: أزهار الرّياض، 76/03،وما بعدها.

[56]– ينظر المعيار، 433/01، وما بعدها.وأُنظر: فتاوى أبي عِمران الفاسي، ص:105.

* يُنظَر:" ثقافة القاضي عياض وإستقامته وورعه"، للأستاذ الصدّيق العلوي، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض: ج1/196-197-198. "القاضي عياض المجتهد والمقلّد"، للأستاذ الجيلاني العبدة، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض: ج2/37، وما بعدها؛ وممّا قاله في هذه المداخلة:"... **ذكرنا آنفاً أنّ القاضي خالف مالكاً في واحد وثلاثين مسألةً 6 منها في الطّهارة و4 في الصّلاة، 8 في الجنائز، 3 في النّكاح، 7 في البيع، 3 في الأوقاف.**

هذا هو الذي خالف فيه القاضي عياض مالكاً وأخذ برأيه وإجتهاده فيه، ولم يخالفه إلّا ببرهان قيّم... ينظر للمسائل: لوامع الدّرر في هتك عويص المختصر، للعالم العلّامة الجليل محمّد بن محمّد سالم المجلسي، أو شرح ابنه عبد القادر؛ المسمّى: ثمان الدّرر في هتك أسرار المختصر"، ص: 39.

وقد نبَّه بعض الدَّارسين على هذه الصِّلة واستدلَّ عليها[57] بقوله: "واحتِجاج عياضٍ المتكرِّر في كتاب "الشِّفا" بآراء أبي الحسن الأشعريّ والقاضي أبي بكرٍ الباقلاّني وأبي بكر بن فورَك وأبي المعالي إمامُ الحرمين الجويني، يثبت كلُّ ذلك صلتَهُ الوثيقةَ بمذهب الأشعريَّة وبكتُبهم، وقراءتُه لمؤلَّفاتهم في الاِعتقاد، ووصفُه للباقلاّني وأبي بكرٍ بن فورك بقوله: "من أئمَّتنا" دالٌّ على أنّه أشعريّ المذهب"[58].

وقد أبان في مواضع من كتاب "الشّفا" وغيره عن هذا الاِنتماء، ففي "الشّفا" وبعد الفصل الذي عقده لذكر أسماء النَّبِيِّ –صلَّى الله عليه وسلّم– حينما لاحظ وجود بعض الاِشتراك فيما بينها وبين بعض أسماء الله الحُسنى، عقد فصلاً لّذلك[59] فقال فيه: "وهاهنا نُكْتَةٌ أذيِّل بها هذا الفصلَ، وأختم بها هذا القسمَ، وأُزيحُ الاِشكالَ بها فيما تقدَّم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تُخَلِّصُهُ[60] من مّهاوي التّشبيه، وتزحزحه عن شبه التّمويه، وهو أن يّعتقد أنّ الله جلّ اسمهُ في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسنى أسمائه وعليّ صفاته، لا يُشبه شيئاً مّن مّخلوقاته، ولا تُشَبَّهُ به، وأنّ ما جاء ممّا أطلقه الشّرع على الخالق وعلى المخلوق فلا تَشَابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صِفات القديم بخلافِ صفات المخلوق.

57– مقال د.عبد الهادي حميتو، مجلّة مِرآة التّراث، عدد: 2011/01، ص: 49.

58– مقدِّمة الأستاذ محمَّد بن تاويت الطَّنجي لكتاب ترتيب المدارك لعياضٍ من تحقيقه؛ ينظر، ص: ح.

59– مقال د.عبد الهادي حميتو، مجلّة مِرآة التّراث، عدد: 2011/01، ص: 50.

60– رُسِمَتْ"تُخَلِّطُهُ"?! في كتاب"شرح الشّفا"، للمُلاّ علي القاري الهروي الحنفي، ج522/1؛ وذاك خطأٌ أعزوه إلى المطبعة.

فكما أنّ ذاتَه لا تشبه الذّوات، فكذلك صِفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفكّ عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزَّه عن ذلك، بل لَمْ يزل بصفاته وأسمائه.

ثمّ قال: "وهذا كلّه مذهب أهل الحقّ والسنّة والجماعة "، وقال في خِتام هذا الفصل ممّا يؤكّد به على اِنتمائه الفكريّ: "ثبّتنا الله وإيّاك على التّوحيد والإثبات والتّنزيه، وجنّبنا طرقِ الضّلالة والغِواية من التّعطيل والتّشبيه،[بمنّه ورحمته]"[61].

ومِنْ هذا المنطلق الفكريّ والعَقَدِيّ دافع عياضٌ عن مبادئ السّلف منَ اَهل السنّة والجماعة في إثبات الصّفات الإلهيَّة، وما يقوم على هذا من إثبات رُؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة، دون تأويلٍ لِّما ثبت في ذلك من النُّصوص الشَّرعيَّة الصَّريحة في الكتاب العزيز والسنَّة النَّبويَّة الصَّحيحة.

وقرَّر فيما يخصُّ الرُّؤيةَ أنَّ "والحقُّ الذي لااِمتراءَ فيه أنّ رُؤيَتَهُ تعالى في الدّنيا جائزةٌ عقلاً، وليس في العقل ما يُحِيلها، والدَّليلُ على جوازها في الدُّنيا سُؤَالُ موسى عليه الصّلاة والسّلام لها، ومُحَالٌ اَن يَّجهل نبيٌّ مَّا يجوز على اللهِ تعالى، وما لايجوز عليه، بل لَمْ يسأل إلّا جائزاً غير مستحيلٍ. وعياض حينما يُثبِت الرُّؤيةَ وجوازها في الدّنيا يقرّر مبدئيّاً أنّ جوازَها في الآخرة أولى إكراماً لِّأهل الإيمان، وتمييزاً لَّهم عن الفجّارِ .

وقد أورد في كتابه "ترتيب المدارك" جوابَ الإمام مالك عن بعض ما كان شيَّده المعتزلة في زمنه من آراء وأفكار، كقولهم: إنّ اللهَ تعالى لا يُرى في الدّارِ الآخرة، وقولهمْ في الاِستواء على العرش، وقضيةِ خلق القرآن. وأورد جواب مالك عن كلّ ذلك في الباب

[61]– لم تُذْكَرْ في"نسيم الرّياض"؛ ينظر: 03/318-326.

الذي عُنوانُه[62]: "باب اِتِّباعه السُّنن وكراهيته المحدَثات، وبعض ما روي عنه في عقائد أهل السنَّة والكلام في الأهواء"[63].

إنّ هذا الموقفَ للقاضي عياض من المعتزلة، و"ما صرّح به في حقّهم ممّا لا يخفى عليه في مثل هذه الحال أنَّه السَّبب البارز إن لَمْ يكنِ الْوحيد الذي أملى على مُستجازه موقفَه من الإباء عليه، والاِمتناع من إجازته جزاءً وفاقاً على ذلك الموقفِ.

وإذا كان عياضٌ مّن الوِجهة التَّاريخيَّة قد فرغ من تأليف "الشِّفا" بعد عام 520هـ بقليل؛ إذ يعود تاريخُ بعض المقابلات عليه إلى عام 522 هـ[64]، كما ذكر في حديثه عن إعجاز القرآن في أثنائه ما يُوافِق هذا التَّاريخَ[65]، فمعناه أنّ كتابه كان قد خرج إلى النَّاس، وربَّما خُمِلَتْ نُسَخٌ مِّنْهُ إلى مكَّةَ وغيرها أثناءَ المجاورةِ الأولى للزَّمخشريّ بها في سنواتِ العِشرين وماحولها، وذلك قبل أن يَّشرعَ الزَّمخشريُّ في إملاء كشَّافه بأعوام مَّعدودة.

وإذا كان الأمر كذلك كان لابدّ أن يَّكون الكتابُ قد بلغ الزَّمخشريَّ، وأن يَّنعكسَ موقفه من الكتابِ ومُؤلِّفه عياض في هذا الاِمتناع من تلبية طلبه، اِنتِصافاً مِّنه

62- قاله الدّكتور عبد الهادي حميتو في التّحقيق، ص: 50.

63- ترتيب المدارك: 169/01. وينظر: "الصّراع المذهبيّ من خلال كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض" للدّكتور عبد القادر العافية، دورة القاضي عياض، 1981، ص:65 وما بعدها.

64- يُنظر: "كتابُ الشِّفا للقاضي عياض من خلال رُوَّاته ورواياته ومخطوطاته الأصليّة" للأستاذ محمّد المنوني، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض،ج3، ص295 وما بعدها.

65- الشّفا: 388/01-389، و ينظر: "القاضي عياض، لولا عياض ما ذُكِر المغرب" للأستاذ: أحمد الكنسوسي، ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض: ج2، ص133 وما بعدها. وَلُبُّ الْقَوْلِ مَاخَلُصَ إليه: د.عبد الهادي حميتو، من أنّ تاريخَ تأليف الشّفا، يعودُ إلى سنة 522هـ. اهـ

ينظر: حواشي المقال السَّابق، رقم 51ص 72. اهـ

وإنتصاراً لّمذهبه، وتعبيراً عن سخطه، وإعلاناً عن تحيُّزه إلى فئته، وإشعاراً لّه بالمنابذة التي لاهوادةَ فيها لمن كان على خِلافه.

وقدِ اِمتعضَ لعياضٍ غير واحدٍ مّن عُلماء المغربِ، فَرَمَوُ الزَّمخشريَّ عن قوس وَّاحدة، وعلّق المقري على ما ذكره من الاِمتناع عنِ الاِجازة لعياضٍ[66] بقوله: "وإمامة الزّمخشري في العلوم معروفة، ولكنَ اَعِنَّةُ القلوب إلى من بيده التَّوفيق وضدّه مصروفة، ولابدَّ مِنَ الإلمام ببعض أحوال هذا الرَّجل الذي اِختلفت في أمره الآراء، وآنس من جانب البيان والنَّحو ناراً، وأنكر الحقَّ وقد وضح نهاراً، وذكر بعضُهم أنَّه تاب، ويأبى ذلك تصريحه في كشّافه بما خالف السنّة جِهاراً، فإنَّه لو صحَّ ذلك لمحاه، أو أشهَد على نفسه بالرُّجوع عمّا قصَده فيه وانْتحاهُ، وكثير من الأئمّة أغضى عنِ اِعتزاله، وانتفع بكشَّافه مع قطع النَّظر عن مَّوضع التُّهمة واِختزاله"[67].

الخاتمة:

كان عياض رحمه الله مشاركا مشاركة فعّالة في علوم كثيرة كالحديث والسّيرة والتّفسير والتّاريخ والأدب واللّغة، وله في هذه العلوم مؤلّفات مذكورة، ولكن صفة الفقيه كانت ألصق به من غيرها، ولذلك لا يذكر اسم عياض إلّا مقرونا بكلمة القاضي، فقد كان مستوعبا لأمّهات كتب الفقه المالكي مستحضرا لأبوابها حافظا لمسائل بعضها كمدوّنة سحنون ومختصر ابن أبي زيد، وله في كتابه ترتيب المدارك تقييم لبعض كتب المذهب. ولمزيد من التّفصيل أكثر ينظر كتاب: " القاضي عياض سيرة موجزة " الدّكتور: محمّد بنشريفة، ص: 63 وما بعدها.

من بين المصادر والمراجع:

[66]- قاله الدّكتور عبد الهادي حميتو، مقال بمجلّة مِرآة التّراث، عدد: 2011/01، ص: 55.

[67]- أزهار الرّياض: 283/03.

- المصحف المعتمد برواية ورش.

1- الدّكتور حسن الوراكلي، أبو الفضل القاضي عياض السّبتي (ثبت ببليوجرافي)، دار الغرب الإسلامي- بيروت، طبعة: 1994م.

2- كتاب الإيمان من إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، تحقيق الدّكتور الحسين بن محمّد شوَّاط، دار الوطن- الرّياض، الطّبعة الأولى:1417هـ.

3- الدّكتور صالح بن عثمان بن محمّد العمري: إجماعات القاضي عياض في الفقه الإسلامي جمعاً و توثيقاً و دراسةً (أُطروحة مّقدّمة لّنيل درجة: الدّكتوراه في تخصّص: الفقه و أصوله، سنة: 1419هـ)، جامعة أمّ القرى- المملكة العربيّة السّعوديّة.

4- ذو الوَزارتَين؛ لسانُ الدّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطّبعة الأولى: 1397هـ - 1977م.

5- المقري، أزهار الرّياض في أخبار عياض، ضبطه وحقّقه وعلّق عليه: مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر- المعهد الخليفي للأبحاث المغربيّة- بيت المغرب: 1358هـ – 1939م.

6- القاضي عياض، إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، ومعه كتاب: الغُنية فهرستُ شيوخ القاضي عياض، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط: 1427هـ – 2006م.

7- القاضي عياض، الإلماع إلى معرفة أصول الرّواية وَتقييد السّماع، تحقيق السيّد: أحمد صقر، مكتبة دار التّراث - القاهرة، الطّبعة الثّالثة: 1425هـ – 2004م.

8- القاضي عياض، الإعلام بحدود [و] قواعد الإسلام، تحقيق: محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة- القاهرة.

9- أحمد بن خالد النّاصري، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، منشورات وزارة الثّقافة و الإتّصال - المملكة المغربيّة – 2001

10- ابن الشّاط، الإشراف على أعلى شرف في التّعريف برجال سند البخاريّ من طريق الشّريف أبي عليّ بن أبي الشّرف، دراسة وَ تحقيق: إسماعيل الخطيب، مطابع الشويخ - تِطوان - المملكة المغربيّة، الطّبعة الثّانية:1432هـ - 2011م.

11- القاضي عياض، بُغية الرّائد لما تضمّنه حديث أمّ زرع مّن الفوائد، تحقيق:صلاح الدّين بن أحمد الإدلبي، محمّد الحسن أجَانف، محمّد عبد السّلام الشّرقاوي، منشورات وِزارة الأوقاف وَ الشُّؤون الإسلاميّة - المملكة المغربيّة: 1395هـ - 1975م.

12- حمزة بن الحسن الأصفهاني، كتاب التّنبيه على حدوث التّصحيف، تحقيق: محمّد أسعَد طلَس، دار صادر - بيروت، الطّبعة الثّانية: بيروت: 1412هـ - 1992م.

13- القاضي عياض، ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمّد بن تاويت الطّنجي، عبد القادر الصّحراوي، سعيد أحمد أعراب، طبعة وزارة الأوقاف وَ الشّؤون الاسلاميّة، ط2: 1403هـ - 1983م.

14- ابن الابار التّكملة.

15- القاضي عياض، التّنبيهات المستنبطة على الكُتُبِ المُدَوَّنَةِ وَ المُخْتَلَطَةِ، تحقيق: الدّكتور محمّد الوثيق، وَ الدّكتور عبد النّعيم حميتي، دار ابن حزم، الطّبعة الأولى: 1432هـ - 2011م.

16- القاضي عياض، التّنبيهات المستنبطة على كُتُبِ المُدَوَّنَةِ وَ المُخْتَلِطَةِ، تحقيق: الدّكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب، المكتبة التّوفيقيّة، الطّبعة الأولى: 1433هـ - 2012م.

17- عبد الحيّ الكتاني الحسني الإدريسي، التّنويه وَ الإشادة بمقام رِواية ابن سعادة(لصحيح البخاري)، تحقيق الدّكتور عبد المجيد خِيَّالي، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وَ خدمة التّراث، الطّبعة الأولى: 1429هـ - 2008م.

18- أحمد شاكر، تصحيحُ الكُتُبِ و صُنع الفهارس المعجمة و كيفيّة ضبط الكتاب و سبقُ المسلمين الإفرنجَ في ذلك، شركة دار البشائر الإسلاميّة - بيروت، الطّبعة الثّالثة - بيروت: 1428هـ - 2007م.

19- أبو عبد الله محمّد، التّعريف بالقاضي عياض، تقديم وَ تحقيق: الدّكتور محمّد بنشريفة، منشورات جامعة القاضي عياض – سلسلة أعمال الذّكرى الثّلاثين، رقم:02، المطبعة وَ الوراقة الوطنيّة الدّاوديات – مُرَّاكش، الطّبعة الأولى:2009.

20- الحافظ أبو عليّ الحسين بن محمّد الغسّاني الجيّاني، تقييد المهمل وَ تمييز المشكل، اعتنى به: علي بن محمّد العمران وَ محمّد عزير شمس، دار عالم الفوائد – المملكة العربيّة السّعوديّة، الطّبعة الأولى: 1421هـ – 2000م.

21- الفقيه أبي عَبيد القاسم بن خلف الجبيري المالكي، كِتَابُ التّوسّط بين مالك و ابن القاسم، في المسائل التي اختلفا فيها من مّسائل المدوّنة، تقديم و تحقيق: الدّكتور الحسن حَمدوشي، دار ابن حزم – بيروت، ط1: 1428هـ – 2007م (رسالة دكتوراه).

22- رضوان جامع رضوان، جامع شروح مقدّمة ابن الصّلاح، دار الغد الجديد، الطّبعة الأولى: 1432هـ – 2011م.

23- ابن القاضي المكناسي، جِذْوَةُ الاِقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينةَ فاس، دار المنصور للطِّباعة وَ الوراقة – الرّباط، ط: 1973م.

24- الخطيب البغدادي، الكِفاية في معرفة أصول علم الرّواية، دار الهُدى، ميت غمر – مصر، الطّبعة الأولى: 1423هـ- 2003م.

25- الرَّامهرمزيّ، المحدِّث الفاصِل بين الرَّاوي وَ الواعي، تحقيق: الدّكتور محمّد عجاج الخطيب، دار الفكر، الطّبعة الأولى: 1391هـ - 1971م.

26- ابن قُرْقول، مطالع الأنوار على صِحاح الآثار، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلميّ وَ تحقيق التّراث – مصر، الطّبعة الأولى: 1433هـ - 2012م.

27- الدّكتور رمضان عبد التوّاب، مناهج تحقيق التّراث بين القُدامى وَ المحدَثين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطّبعة الأولى: 1406هـ – 1985م.

28- الغُنْية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرّار، دار الغرب الإسلاميّ- بيروت- لبنان، ط1: 1402هـ- 1982م.

29- الدّكتور محمّد بنشريفة، القاضي عياض سيرة مّوجزة، منشورات جامعة القاضي عياض - سلسلة أعمال الذّكرى الثّلاثين-1- المطبعة وَ الوراقة الوطنيّة الدّاوديات - مرّاكش، الطّبعة الأولى: 2009.

المجلّات؛ و ماقِيل في النّدوات:

1- "أبو عِمران الفاسي، حافظ المذهب المالكيّ"، بُحوث النّدوة العلميّة التي نظّمها مركز الدّراسات وَ الأبحاث وَ إحياء التّراث بالرّابطة المحمّديّة للعلماء: 30- أفريل- 2009 - الرّباط، الطّبعة الأولى: 1431هـ - 2010م.

2- الدّكتور صلاح الدّين المنجد، "إجازات السّماع في المخطوطات القديمة"، مجلّة معهد المخطوطات، المجلّد الأوّل - الجزء الثّاني: ربيع الأوّل1375هـ - نوفمبر 1955م.

3- "الاستشراق" - سلسلة كتب الثّقافة المقارنة، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد - العراق، العددان: الأوّل والثّاني، كانون الثّاني، شُباط- 1987م.

4 الدّكتور عبد الهادي حميتو - "تحقيقات في مُنتهى رِحلة القاضي عياض، و هل حجّ حقّاً؟ ولقي الإمام الزّمخشريّ و ناظره؟"، مجلّة مِرآة التّراث المغربيّة، العدد الأوّل: جمادى الثّانية 1432هـ - يونيو 2011م.

05- "ندوة الإمام مالك، دورة القاضي عياض"، مُرّاكش: 13-14-15 جمادى الأولى1401هـ/ 20-21-22 مارس 1981، مطبعة فضالة – المحمّديّة (المغرب) 1404هـ - 1984م.